مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

التواصل بين دول بلاد المغرب ودول المتوسط من خلال كتب الجغرافيا والرحلات خلال العصر الوسيط

Communication between the countries of the Maghreb and the Mediterranean countries through geography books and travels During the Middle Age

د/ نسيم حسبلاوي
جامعة أكلي محند ولحاج – البويرة n.hasbellaoui@univ-bouira.dz
مخبر التاريخ المحلي والذاكرة الجماعية والمقاربات الجديدة- البويرة

تاريخ الارسال: 2023/05/05 تاريخ القبول: 2024/01/17 تاريخ النشر:2024/12/29

الملخص: تطرقت في هذا المقال إلى المجالات التي تم خلالها التواصل بين دول المغرب المطلة على المتوسط وباقي الدول التي تنتمي لهذا الإقليم في مختلف المجالات الحضارية، وقارنت بين حالات السلم وحالات الحرب التي كانت تترا على الجانبين ، وكان لزاما لفهم الموضوع التطرق أولا لأشهر وأهم الكيانات السياسية الفاعلة بالبحر المتوسط خلال فترة الدراسة (العصور الوسطى) ومدى تأثيرها وتأثرها بالأحداث، ثم تعرضتُ لأهم الطرق والمراسي التي فتحت المجال واسعا أمام هذا التواصل سواء على مستوى الضفتين الشمالية والجنوبية أو على ضفاف الجزر المترامية هنا وهناك في وسط المتوسط .

المؤلف المرسل: نسيم حسبلاوي.
البريد الالكتروني:n.hasbellaoui@univ-bouira.dz

حاولت البحث في نوع العلاقة الغالبة بين دول المغارب الإسلامية وغيرها من الدول الإسلامية الأخرى ، وبينها وبين الآخر في الضفة الأخرى من الدول المسيحية ، وهل أثرت التحولات السياسية المختلفة على النشاط الحضاري الذي حملته أمواج المتوسط في مختلف السواحل ؟ ، وقد توصلتُ إلى تكذيب من يتهم المسلمين بتأثيرهم السلبي على النشاط الدولي بالمتوسط لمّا كانت لهم السيطرة عليه، وأوضحت أن العلاقة الغالبة بين الدول المطلة على المتوسط هي "تبادل المنفعة" حتى خلال الفترات التي كانت الكلمة فيها للحرب والقتال.

الكلمات المفتاحية: العلاقات؛ المتوسط؛ الحضارة؛ المسلمين؛ المسيحيين .

Abstract: In this article, I discussed the areas where communication took place between the Maghreb countries bordering the Mediterranean and the rest of the countries belonging to this region in various civilized areas, and compared between the situations of peace and the situations of war that were on both sides, and it was necessary to understand the subject to first address the most famous and important political entities active in the Mediterranean during the study period (Middle Ages) and the extent of their influence and influencer on events, then exposed to the roads and the most important marine marinas that paved the way for this communication, Whether on the north and south shores or on the shores of islands stretching here and there in the middle of the Mediterranean

I tried to look for the kind of relationship between the Islamic Maghreb countries and other Islamic countries,

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

and between them and the other side of the Christian countries, and the different political transformations have-they affected the civilizational activity carried by the waves of the Mediterranean in the different coasts? She noted the denial of those who accuse Muslims of having a negative impact on international activity in the Mediterranean when they control it, and explained that the dominant relationship between the countries bordering the Mediterranean is the «reciprocity of benefits»even during times when war and fighting were the word.

Keywords: Relationships; Mediterranean Sea; civilization; Muslims; Christians.

1. مقدمة:

عرف البحر المتوسط خلال العصر الوسيط عدّة تقلبات سياسية وتعددت السيطرة على مياهه وتنوعت كياناته وقِواه الفاعلة التي تحكمت في طرقه المختلفة وأسهمت في التفاعلات الحاصلة بين شماله وجنوبه وشرقه وغربه عبر القرون المختلفة، فلما كان "البحر الشامي"، تحكمت فيه دول الشام التي اتخذت منه مجالا لترويج تجارتها، ثم تحول إلى "بحر الروم" بعدما سيطر على شماله وجنوبه الروم البيزنطيين، وبعد الفتوح الإسلامية وسيطرة الدول الإسلامية على غربه وجنوبه وشرقه ومعظم جزره تحول إلى "بحر العرب".

وطيلة هذه القرون تنوعت العلاقات والتفاعلات بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، وتحكمت فيها نوع العلاقات الرابطة بين القوى الفاعلة بهذا البحر الذي سوف يسمى "المتوسط"، فأحيانا تكون سلما تجوب فيها السفن عباب المياه بأمان للسفر والحج والتجارة، وأحيانا أخرى تغلب الحرب على العلاقات فتقل الملاحة البحرية وتتوقف الأسفار إلا نادرا مع الحذر الشديد تاركة للسفن الحربية المجال واسعا للحملات المتبادلة كما جرت مع الفتوحات الإسلامية ثم الحروب الصليبية.

ومن هنا سوف أبحث في الإشكالية التي تجمع بين نوع العلاقات الغالبة بين بلدان الغرب الإسلامي والغرب المسيحي ثم الجنسيات التي سيطرت على هذه العلاقات.

وقد استخدمتُ المنهج الاستقرائي الذي ينتقل من الجزء إلى الكل فتطرقتُ ابتداء إلى ذكر الكيانات السياسية التي هيمنت على المتوسط خلال فترة الدراسة ثم أهم الطرق المراسي والطرق التي سوف تفتح المجال أمام العلاقات العامة التي ربطت بين دول المغرب وباقي دول المتوسط، مستخدما المناهج الإجرائية التي يقوم عليها البحث الأكاديمي من تحليل ومقارنة واستنتاج.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

1_ الكيانات السياسية الفاعلة بالبحر المتوسط خلال العصر الوسيط:

تفصّل لنا كتب الجغرافيا والرحلات في المواضع والأقاليم التي يتكوّن منها البحر المتوسط، فأما السواحل فهي بلاد المغرب ومنها المغرب الأوسط والأقصى وإفريقية ثم ليبيا، ومن أهم مناطقها فزان وبرقة وطرابلس، ثم البلاد المصرية وأشهر مدنها الإسكندرية، فبلاد الشام التي مبدأها أرض فلسطين فسوريا ولبنان، ثم آسيا الصغرى (تركيا حاليا)، ثم اليونان وبعده إيطاليا يليها جنوب غالة (فرنسا) لينتهي بشبه جزيرة الأندلس. فهذا البكري يوضح ذلك بقوله: << وهذا المضيق [جبل طارق] الذي قدمنا ذكره وهو الخليج الذي عليه طنجة متصل ببلاد المغرب وإفريقية والسوس وأطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرمادة إلى بلاد الإسكندرية إلى تنّيس ودمياط وساحل الشام ثم ساحل الروم إلى بلاد رومة، إلى أن يصل إلى ساحل الأندلس راجعا إلى الخليج الضيّق الذي بدأنا بذكره>>[1].

وأما الجزر المتواجدة بهذا الحوض فهي من الشرق إلى الغرب جزيرة قبرص (Cyprus) ثم جزيرة كريت (Crete) فأشهر جزره صقلية (Sicily) وتليها جزيرة سردينيا(Sardinia) وإلى شمالها جزيرة كورسيكا(Corsica) لتختمها الجزر الشرقية (البليار) الإسبانية (Balearic)، وجربة (Djerba) بالقرب من الساحل التونسي – كما توضحه الخريطة-[2] ، ومما يجعل الحوض المتوسطي يحتل أهمية كبيرة هو انفتاحه على عدّة أبحر صغيرة هي بحر إيجة الذي يرتبط بالبحر الأسود (Black Sea) عبر مضيقي البوسفور والدردنيل، والبحر الأدرياتيكي(Adriatic Sea) الذي

يفصل منطقة البلقان عن شبه جزيرة إيطاليا، لينتهي به منفتحا على البحر المحيط (المحيط الأطلسي) (Atlantic Sea) عبر مضيق جبل طارق.

وبكل هذه المناطق كان للمسلمين والغرب المسيحي نقاط التماس والتواصل سواء عن طريق الحروب أو التجارة أو غيرها حسب الظروف المتغيرة طيلة العصر الوسيط.

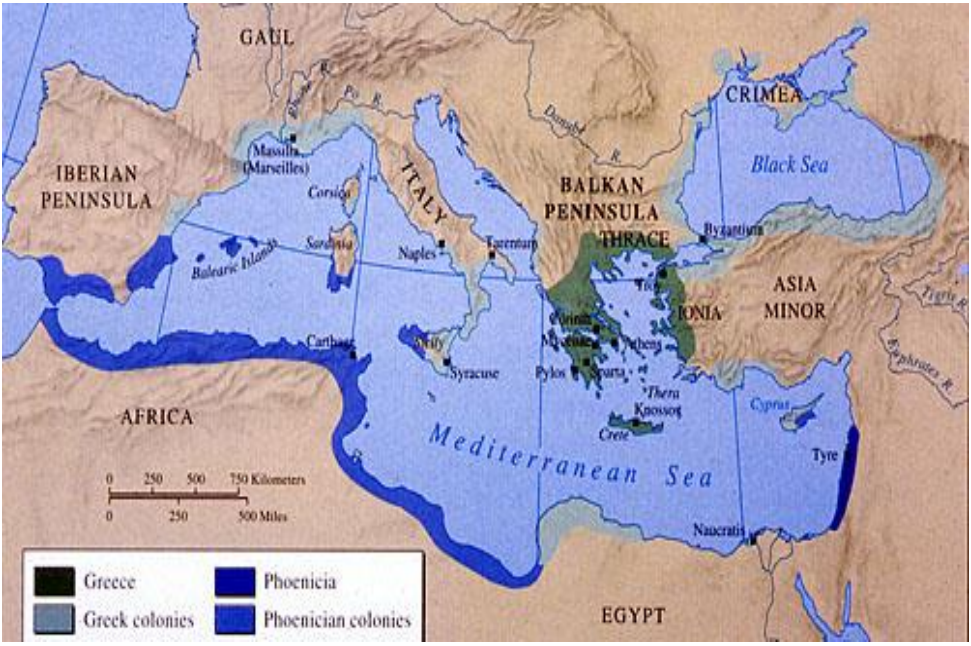

أما أهم الكيانات السياسية الفاعلة في حوض البحر المتوسط خلال العصر الوسيط فقد أحكم **الروم** البيزنطيون قبضتهم على المتوسط برهة من الزمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية خاصة على عهد "جوستنيانوس" –تولى عام 527م- فخضع له الساحل الإفريقي الشمالي، بما في ذلك سبتة والإسكندرية، والساحل الإسباني الجنوبي ومعظم جزر المتوسط بما في ذلك إيطاليا[3] ، لكن سرعان ما

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

ظهرت قوة المسلمين الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية فاتحين لبلاد الشام فكانت غزوة مؤتة في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) سنة 8هـ/629م ضد الروم البيزنطيين، وكان فتح دمشق في 13هـ/ 634م، وجاءت معركة اليرموك في 15هـ/ 636م وفي نفس السنة وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى العراق فكانت معركة القادسية ضد الفرس سنة 15هـ ، وفي الجهة الغربية تم فتح مصر وانتزاعها من البيزنطيين على يد عمرو بن العاص سنة 21هـ/ 642م ليبدأ بعدها مسلسل فتح بلاد المغرب منذ معركة سبيطلة (تونس) بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ضد جرجير الوالي البيزنطي عام 27هـ/ 647م[4] ، ثم انتهاء بفتح بلاد الأندلس منذ سنة 92هـ/ 711م، على يد البطلان طارق بن زياد وموسى بن نصير. وخلال هذا المدّ كان أول اصطدام بحري مباشر بين البيزنطيين والمسلمين في عهد الخليفة عثمان بن عفان عند "جزيرة قبرص" التي غزاها معاوية بن أبي سفيان سنة 28هـ/، ثم تلتها "ذات الصواري" سنة 34هـ/ 655م بقيادة ابن أبي سرح، وكانت على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى[5].

وذكر البلاذري أن "معاوية بن حديج الكندي " أيام معاوية بن أبي سفيان كان أول من غزا صقلية، ثم فُتحت "رودس" سنة 52هـ ثم إقريطش(كريت) في عهدي هارون الرشيد وابنه المأمون[6] ، وما فتئ الأغالبة في تونس أن فتحوا "صقلية" أيام ولاية " زيادة الله بن الأغلب سنة 212هـ/827م على يد الفقيه القاضي "أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان"[7] ، أما الجزر الشرقية (البليار) الأندلسية فتم فتحها على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير وقيل أن فتحها كان أيام الأمويين في

الأندلس وذلك في عهد الأمير عبد الله بن محمد (حكم بين 229-300هـ/844-912م)[8] ، ولم تسلم حتى القسطنطينية من محاولات المسلمين فتحها وذلك بين سنتيْ 717-718م/ 99-100هـ وهي مدة الحصار الذي فرضه عليها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك[9] .

في غرب أوربا كانت شمال إيطاليا تحت سيطرة **اللمبارديين** بعدما أضعفوا قوة البيزنطيين بها ، وفي الوسط يسيطر البابا الذي مقره "روما" وأصبحت الكنيسة (البابوية) نتيجة الحق الذي تمتعت به الكنيسة منذ عهد قسطنطين الكبير في حيازة الممتلكات وهو ما أدى في أواسط القرن الثامن الميلادي إلى انفجار الصراع بين اللمبارديين والبابوية، تليها مملكة **الفرنجة** ببلاد الغال (فرنسا) وهم قوم من الجرمان، ولم يبرز دورهم قبل القرن الثالث الميلادي، كما يُعتبر "كلوفيس" الذي عاش بين 466- 511م المؤسس الفعلي لهذه الدولة[10] ، وقد ميّز تاريخها خلال العصر الوسيط حكم أسرتين أو سلالتين "السلالة الميروفنجية" بين 481-752م نسبة لجد كلوفيس واسمه "ميروفه"[11] ، ثم "السلالة الكارولنجية" بين 768-899م والتي تُنسب إلى شارل الكبير أو كارلمان ابن بيبين القصير (تولى الحكم بين 768- 814م)، وفي هذا العهد تحالفت دولة الفرنجة مع البابا في روما ضد اللمبارديين –خلال الصراع سابق الذكر- حتى أن البابا ليون الثالث توّجه امبراطورا بكنيسة القديس بطرس بروما سنة 800م، كما امتد نفوذهم إلى شمال إسبانيا :كتالونيا ونافار وآراغون[12] .

أما في الأندلس **فالممالك المسيحية الإسبانية** بالشمال كانت قد استنهضت قواها ضد المسلمين فكانت النتيجة سقوط طليطلة بيد ملك مملكة قشتالة "

ألفونسو السادس سنة 1085م[13] ، الحدث الذي فتح المجال واسعا وسريعا لسقوط الأندلس وطرد المسلمين منها.

ثم ظهر **النورمان** بصقلية وجنوب إيطاليا وهو ما أدى إلى استيلائهم على صقلية وطرد المسلمين منها نهائيا سنة 484هـ/1091م وكان ذلك على يد "روجر" الإبن الأصغر لروبرت جويسكارد وابنه "روجر الثاني"، هذا الأخير <<الذي صدم العالم المسيحي بصداقته الحميمية للمسلمين>>[14] .

ثم بروز **الجمهوريات الإيطالية** (جنوة، بيزا، البندقية) كقوى تجارية مهيمنة على تجارة البحر المتوسط[15] ، نتيجة ظهور نظام الكومونات (Commune) في شمال إيطاليا التي تحولت إلى "جمهوريات مستقلة"[16] ،

فقد أقامت هذه الجمهوريات علاقات تجارية طيبة مع مصر والشام حتى مستهل القرن 12م، وكانت **البندقية** الأكثر نشاطا بعدما منحت بيزنطة لها امتيازات تجارية جليلة في الأراضي التابعة لها بل وحتى في العاصمة بيزنطة ،خاصة في اتفاقية سنة 1085م[17] ، كما عظُمت قوة "**جنوة**" و"**بيزا**" في المتوسط الأمر الذي جعلهما يقومان بأكبر هجوم على شمال إفريقيا <<فاستولت الحملة على المهدية وزويلة انتهت بدفع تميم بن المعز –خامس حكام الزيريين- معاهدة صلح مع البيازنة والجنويين>>[18] ، وهكذا استمر التواصل بحرا بين هذه القوى التي سوف تلحقها قوة المرابطين وبعدهم الموحدين في المغرب والأندلس ثم الدويلات الصغرى ما بعد الموحدين في كل من المغرب والأندلس وهم : الحفصيون في تونس،

الزيانيون في المغرب الأوسط، المرينيون في المغرب الأقصى ، ومملكة غرناطة في الأندلس.

2_ طرق التواصل وأهم المراسي بالغرب الإسلامي:

وهي المراسي التي اتخذها المسافرون (للحج أو العلم) واستغلها التجار للبيع والشراء، المسيحيون والمسلمون على السواء والتي مثلت أماكن التواصل بين الجانبين ومن أشهرها: ألمرية، غرناطة، سبتة ، وهران، الجزائر، بجاية، تونس، جربة، برقة، طرابلس، الإسكندرية، غزّة، صيدا، صور، بيروت، والإسكندرونة، قبرص، إقريطش (كريت)، صقلية، رومة، جنوة ، بيجة (بيزا)، سردينيا ، أربونة، برشلونة، جزر البليار، وأخيرا السواحل الشرقية والجنوبية لبلاد الأندلس.

ومن أشهر المراسي والطرق بالغرب الإسلامي مدينة **طنجة** الساحلية، ذكر البكري طريقا عبر البحر بين طنجة وسبتة فإن المُبحِر << يأخذ إلى جانب الشرق وأول ما يلقى جبل المنارة ثم مرسى باب اليم... ويُقابل باب اليم من جزيرة الأندلس مرسى جزيرة طريف>>[19] ، وعن **سبتة** ذكر ابن سعيد << بأن أول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة ... منه يُحمل خشب الأرز الذي تنشأ منه الأساطيل ويعرف في الأبنية الملوكية ويحمل إلى الآفاق>>[20] ، ويؤكد الإدريسي اتّصال سبتة بساحل الأندلس قائلا: <<هو حِصن كبير على ضفة البحر تُنشأ به المراكب والزوارق التي يسافر بها إلى بلاد الأندلس>>[21] .

أما أهم المراسي القريبة من المغرب الأقصى شمالا فهي المدن الساحلية الأندلسية والتي من أشهرها "**الجزيرة الخضراء**" التي بها <<إنشاء [أي السفن] وإقلاع وحطّ>>[22] . وفي الجنوب الشرقي للأندلس عدّة مراسي اتخذها المسافرون والتجار محطات للتنقل في البحر المتوسط والتي ينتقلون بينها وبين المغرب أو مصر

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

أو الشام أو الجزر المختلفة وسط البحر منها "**مالقة**" التي وُصفت أن << تينُها يُحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند>>[23] ، وأكد هذا ابن سعيد قائلا: <<يُحمل التين المالقي واللوز إلى الأقطار>>[24] ، ومثلها "مدينة **بلنسية**" وهي <<كثيرة التجار والعمارة، وبها أسواق وتجارات وحطّ وإقلاع>>[25] ، ثم مدينة "**دانية**" <<تسافر إليها السفن، وبها ينشأ أكثرها لأنها دار إنشاء السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق>>[26] . ومن أشهر المراسي أيضا مدينة "**ألمرّيّة**" << كانت إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله>>[27] .

وأقرب مرسى ومحطة لمدينة سبة بالمغرب الأوسط على المتوسط مدينة **وهران** : <<والذي بناها محمد بن أبي عون ومحمد بن عدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن من أزداجة...سنة 290هـ>>[28] ، <<وهي فرضة الأندلس إليها ترِد السلاع ومنها يحملون الغلال >>[29] ، وزاد الإدريسي: << بها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة... ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس... ولها على ميلين منها "المرسى الكبير" فيه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية...ومراكب الأندلس إليها مختلفة>>[30] .

وعلى نفس الساحل نجد مدينة **تنس**، قال عنها ابن سعيد: <<هي مشهورة بكثرة القمح، ومنها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها>>[31] ، ومدينة **بونة** ذكرها البكري قائلا: << وأكثر تجارها أندلسيون...>>[32] . ويبين الإدريسي ذلك

الصراع العسكري الدائر في المتوسط حينما أشار إلى احتلال "بونة" من طرف ملك صقلية << الملك المعظم "رجار" سنة 548هـ، وبها عامل من قِبله>>[33] .

وبالقرب منها نجد مدينة **مرسى الخرز** (الطارف) <<بشرقي بونة فيه المرجان، وهي مدينة قد أحاط بها البحر إلا مسلكا لطيفا...عليها سور وبها سوق عامرة، وقد صُنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة، وفيها تُنشأ السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها إلى بلاد الروم...>> [34] ، وزاد الإدريسي << لها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة أهلها لها على صيد المرجان...ويقصد التجار من سائر البلاد إليها فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات...ويُعمل به في كل الأوقات الخمسون قاربا والزائد والناقص وفي كل قارب العشرون رجلا>>[35] .

وعن **بجاية** قال الإدريسي: << أنها في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة، وبه القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يُجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق...ولها بوادٍ ومزارع والحنطة والشعير بها موجودتان والتين وسائر الفواكه...وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير...>> [36] . وقبلها **نجد جزائر بني مزغنّة** << مرساها مأمونٌ له عينٌ عذبة يقصد إليه السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما>>[37] ، وهو ما أكده الإدريسي عنها: <<...وهي عامرة آهلة وتجاراتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي...والعسل والسمن كثير في بلدهم وربما يُتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم...>> [38] .

ومن أهم المراسي بالمغرب الأدنى مدينة **المهدية** التي بناها عبيد الله المهدي الفاطمي ابتداء من 303هـ/915م وتتواجد بالساحل التونسي قال فيها البكري: << وهي مرفأ لسفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها>>[39] ، فهي إذن ملتقى الطرق والرحلات من وإلى مختلف أنحاء البحر المتوسط، وهو ما أكده الإدريسي القائل عنها: << لم تزل ذات إقلاع ومحط للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم...>> [40] ، أما عن **تونس** فذكر البكري أن حسّان ابن النعمان هو من افتتحها من يد الروم البيزنطيين، بل زاد على ذلك أن بها <<صناعة المراكب>> ويُجاهد الروم منها في البر والبحر[41] ، وقد أكد ابن جبير في رحلته كثرة السفر بين تونس وصقلية والذي لا ينقطع ولا يتعطل شتاء ولا صيفا[42] .

وبالقرب من تونس في البحر المتوسط ذكر ابن سعيد "**جزيرة قوصرة**" <<تجلب منها شريحة التين والقطن وبها المصطكي، وهي للمسلمين تحت عهد من فرنج صقلية وبينهما مجرى>>[43] ، وهذا يؤكد الطريق البحري بين صقلية ومدينة تونس.

ويبين لنا البكري مراسي أخرى تسلكها السفن في إبحارها من المغرب إلى المشرق مرورا بمصر، وهو الطريق البحري الذي يسلكه المسافر أو التاجر نحو الشرق فيذكر <<**سلوك السفن من المهديّة إلى الإسكندرية**>> ومن أشهر المراسي : سفاقس ، قابس، جزيرة جربة، مدينة أطرابلس، لبدة، سرت، أجدابية، ثم سوسة برقة، مرسى درنى، طُبرق، ثم عبر مراسي عدّة صغيرة وصولا إلى

الإسكندرية[44] ، وذكر ابن سعيد **طبرقة** (ليبيا) <<يُحمل منها الخشب والقصب الفارسي الجيد إلى الحضرة التونسية>>[45] ، **ثم يستمر في ذكر المراسي** ما بعد الإسكندرية وصولا إلى آسيا الصغرى <<**سلوك السفن من الإسكندرية إلى أنطاليا**>>: فأول مرسى بوقير، دمياط، بحيرة تنيس...، غزّة، عسقلان، يافا، حيفا، عكّة، صيدا، بيروت، أطرابلس الشام، ثم إلى اللاذقية، ثم أنطاكية فأنطاليا[46] ، وهو الطريق الذي يوصل إلى آسيا الصغرى.

ومن أهم هذه المراسي المذكورة سلفا بين المغرب الأدنى ومصر مدينة "**طرابلس**" التي وصفها الإدريسي <<بها صنّاع وأمتعة يُتجهّز بها إلى كثير من الجهات>> ثم يؤكد الصراع العسكري بالمتوسط الذي يطرأ من حين لآخر والذي أشرنا إليه سابقا، وذلك باحتلالها من طرف ملك صقلية "روجار الثاني"<< سنة 540هـ فسبى حرمها وأفنى رجالها وهي الآن في طاعته>>[47] ، وليس بعيد عن طرابلس بالساحل الليبي يوجد "قصر طلميثة" << عامر بالناس والمراكب تقصد إليه بالمتاع الحسن من القطن والكتان ويُتجهز منه بالعسل والقطران والسمن في المراكب الوصلة إليه من الإسكندرية>>[48] ، وهذا يؤكد اتصال الطريق البحري بين المغرب ومصر، وفي نفس السياق يذكر احتلال "رجار" أيضا لجزيرة جربة المقابلة للساحل التونسي سنة 529هـ[49] .

وأما محطات الساحل **الشامي** فنذكر مرسى مدينة **عكا** ومرسى مدينة "**حلب**" ، أما الأول فقال عنه ابن سعيد: <<هي ركاب الفرنج ومجمع تجارهم وحجاجهم>>[50] ، وأما الثاني فذكر أنه: <<أكثر ما يُزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعم بلاد المغرب>>[51] ، وهذا تأكيد آخر للتواصل بين المشرق والمغرب بحرا.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

وأخيرا نأتي إلى ذكر نماذج من الضفة الجنوبية للمتوسط ومنها "**بيزا**" (Pise) –سابقة الذكر- والتي سماها ابن سعيد "**بيس**"، وعنها قال:<<أنها مشهورة ومن فرض الإفرنج المترددين إلى بلاد الإسلام>>[52] ، وسمى "**بلاد بولية**" في بحر الزقاق وهو بحر المجاز المشهور بمضيق جبل طارق <<التي يجلب منها الإفرنج الزيت إلى الإسكندرية وغيرها>>، وعن جزيرة **كريت** (أقريطش) <<يجلب منها إلى الإسكندرية الجبن والعسل>>[53] ، وذكر الإدريسي طريقا آخر بحري من جزر البليار الأندلسية نحو جزيرة "سردينيا" حيث قال: << من "منورقة" [إحدى جزر البليار الثلاث] إلى جزيرة "سردانية" أربع مجار>>[54] .

وذكر ابن سعيد مرسيين بجنوب فرنسا على الساحل المتوسطي كانت لهما روابط بحرية مع مناطق متوسطية أخرى وهما "**نربونة**" (Narbonne) **ومرسيلية** (Marseille)، يُحمل على الأولى القزدير والنحاس من إنكلترا وإيرلندة <<ومنها يحملان في مراكب إلى الإسكندرية>>، أما الثانية <<فهي من فرض الفرنج المترددين على بلاد الإسلام>>[55] .

ويؤكد ابن جبير في رحلته التي بدأها سنة 578هـ/1182م على هذه المراسي البحرية انطلاقا من غرناطة <<للنية الحجازية المباركة>>[56] ، فحطّ بجزيرة "طريف" ومنها إلى مدينة "سبتة" ومنها ركب إلى "الإسكندرية" مرورا بجزيرة "سردانية" ثم "إقريطش" (كريت) حيث تراء له برّ صقلية دون الرسوّ بها ، ومن كريت توجه إلى الإسكندرية[57] . أما في طريق العودة بعدما أنهى مناسك الحج فعاد مع وفد العراق عبر الشام، حتى انتهى به السير برا إلى "لبنان" ليواصل

الإبحار إلى "بانياس" ثم "عكا" وبعدها إلى "صور" ومنها إلى "الإسكندرونة"، وبها أُعلم ومَن كان معه <<بأن مركبا متوجه إلى بجاية>> لكن ولصغره لم يركبوا فيه[58] ، حتى توفر لهم مركبٌ آخر أوسع وأكبر قائده "جنوي"، فانتقل بهم إلى "أقريطش" ثم إلى "صقلية" ومنها إلى ساحل الأندلس عبر "سردانية" فـ "يابسة" (إيبيزا بجزر البليار) وصولا إلى مدينة "دانية" بالأندلس ثم استمرت الرحلة عبر نفس الساحل : "قرطاجنة"، "مرسية"، "لورقة"، "وادي آش" انتهاء بغرناطة[59] .

وهذا "ابن بطوطة" يخرج من "طنجة" عام 725هـ/1326م إلى تلمسان ثم يقصد رفقة تجار تونس مدينة "الجزائر" ثم "بجاية" ومنها برا إلى "قسنطينة" حيث نزل شمالا إلى الساحل نحو "بونة" التي منها انتقل إلى "تونس" إلى "طرابلس" فـ "الإسكندرية"، وبعد الانتهاء من مناسك الحج وزيارة الشام والعراق والهند وآسيا الصغرى ينزل برا إلى مصر ليعود أدراجه بحرا من "الإسكندرية" إلى "تونس" ومنها نحو جزيرة "سردانية" رفقة <<القطلانيين>> [أهل شمال شرق الأندلس]، ثم يعود إلى المغرب الأوسط عند مدينة "تنس" ليدخل برا نحو "مستغانم" و"تلمسان" و"فاس" بالمغرب الأقصى إلى "طنجة" ثم "سبتة" لينتهي به السير بالأندلس[60] .

وفي الجهة المقابلة نجد "**ابن يمين التطيلي**" الذي بدأ رحلته سنة 561هـ/1165م من مدينة سرقسطة الأندلسية برا عبر "تطيلة" و"برشلونة" ثم "جنوب فرنسا" إلى "جنوة" و"بيزا" بشواطئ المتوسط الشمالية ليصل بحرا إلى "اليونان"، وبعد صعوده إلى القسطنطينية عاد أدراجه إلى البحر المتوسط حيث عبر "بحر إيجة" ونزل بجزيرتيْ "رودس" و"قبرص"، ومنها إلى سواحل بلاد الشام المتوسطية : "قيليقية"، "لبنان"، "فلسطين"، وبعد زيارة مطولة للشرق الإسلامي والشرق الأقصى عاد برا إلى شبه الجزيرة العربية ليدخل البحر الأحمر حيث ينتهي

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

به السير إلى "الإسكندرية"، التي منها يركب البحر نحو "صقلية" ومنها مباشرة إلى إسبانيا(الأندلس) [61].

ولم تتغيّر الطرق البحرية خاصة بالغرب الإسلامي إلى أواخر العصر الوسيط، حيث بقي المسافر أو التاجر ينتقل من إحدى المدن الساحلية الجنوبية بالأندلس فيتوجه إلى "طنجة" أو "سبتة" أو إحدى مدن المغرب الأوسط "وهران"، "تنس"، "الجزائر"، ثم يتوجه نحو "تونس"، "جربة" ثم إلى "برقة" و"طرابلس" بليبيا وصولا إلى "الإسكندرية" ومنها يدخل مصر، أو يتوجه نحو المشرق[62].

3_ مجالات التواصل الحضاري:

شهد البحر المتوسط عدّة مجالات تواصل بين المغرب الإسلامي وباقي دول المتوسط سواء تعلّق الأمر بالتواصل الفكري- الديني عن طريق العلماء وطلبة العلم الذين انتقلوا من المغرب إلى دول مختلفة متوسطية كمصر وبلاد الشام وصقلية والأندلس وحجاج الأماكن المقدسة سواء من المسلمين أو من النصارى، كما عرف التبادل التجاري حيوية كبيرة في المتوسط عن طريق الروابط بين دول المغرب وبعض الدول المتوسطية كجنوة والبندقية وصقلية وبلاد الشام والأندلس. أو التواصل الجسدي من خلال السفر عبر القوارب المشتركة سواء قوارب المسلمين (من المصريين أو المغاربة أو الأندلسيين) ، أو قوارب المسيحيين (من الروم البيزنطيين أو الجنويين). وقد تضمن العنصر الثاني الذي ذكرنا فيه المراسي الهامة بسواحل المتوسط الكثير من الإشارات الدالة على هذا التواصل، والتي سوف نستدل بها هنا عند اقتضاء الضرورة.

فبغض النظر عن العلاقات العسكرية التي غلبت على العلاقة بين الشرق والغرب مع بدايات الفتوحات الإسلامية أثناء قوة المسلمين، مرورا بالحروب الصليبية وانتهاء بالهجوم المضاد من الغرب المسيحي ضد العالم الإسلامي خلال أواخر العصر الوسيط لمّا تغيّر مركز القوة من الشرق نحو الغرب فإن طابع العلاقات السلمية كان له حضور وبقوة سواء في مراحل السلم أو خلال مراحل المعارك والحروب.

فقد تحدثتُ عن مخلّفات الفتوحات الإسلامية في المتوسط والتي كان من نتائجها فتح قبرص وصقلية والمغرب والأندلس بما فيها جزر البليار، حيث كانت سفن المسلمين تقطع مياه المتوسط من الشام كما حدث في فتح قبرص ومحاولات

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

فتح القسطنطينية، أو من مصر كما حدث في معركة ذات الصواري، أو من إفريقية والمغرب كما حصل في فتح صقلية والأندلس، أو من الأندلس كما حدث في فتح جزر البليار، وهذا ابن عذارى –كمثال- يُخبرنا عن وصول <<نحو 300 مركب من الأندلس>> إلى صقلية سنة 214هـ/ 829م فقدّموا الغوث لمن كان بها من المسلمين[63]، كما ظهرت **جنوة** كقوة في المتوسط وقامت بهجمات عدّة ضد المسلمين في سردينيا 1015م و1034م ثم تجرأوا على شمال إفريقيا فهاجموا بونة بالمغرب الأوسط وتملّكوها فترة من الزمن، والمهدية (بتونس) سنة 1087م من طرف **بيزا** [64]، ويذكر ابن يمين أن الجنويين <<مسيطرين على البحار يجوبونها بسفنهم الخاصة...ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة>>[65] .

وبالمقابل جاء ردّ الفعل من الغرب المسيحي فظهرت **فكرة الحروب الصليبية** التي غذّاها البابا أوربان الثاني(1088-1099م) والذي عقد مجمعا في بليزانس بين 1-7 مارس1095م/489هـ دفاعا عن<<اضطهاد المسلمين لقوافل الحج النصراني إلى الأراضي المقدسة >> وهي أكذوبة تمّ تضخيمها لكسب التأييد الشعبي للحملة، وأثناء المؤتمر أرسل إمبراطور بيزنطة "ألكسيس كومنين" وفدا للنفخ في فكرة الاضطهاد والدفاع عن الكنيسة المقدّسة ببيت المقدس[66] ، ولم يلبث أوربان الثاني أن قام بجولة في غرب أوربا داعيا إلى حملة عسكرية لاسترجاع بيت المقدس <<فزار لمبارديا، فرنسا، فالونس، سان جيل (جنوب فرنسا)، تراسكون ، أفنيون، ليون ، دير كلوني، ليستقر في كليرمونت حيث عقد مجمع كليرمون في 18

تشرين الثاني (أكتوبر) 1095م الذي نتج عنه إرسال الحملة الصليبية الأولى>>[67] ، وكان من المشاركين في الحملة النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا بقيادة بوهيموند وابن أخيه تانكريد الذين كانت أهدافهم سياسية أكثر منها دينية[68] ، ووجد الصليبيون في السفن الإيطالية الملاذ لنقل جنودهم نحو الشرق الإسلامي خلال الحملة الصليبية الثانية والثالثة[69] .

كما حصلت كل من البندقية وجنوة على امتيازات تجارية كثيرة في سواحل الشام المتوسطية بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى وذلك في كل من أنطاكيا، وعكا وطبرية وصيدا ويافا[70]، ويشير بيرين إلى أن هذا النشاط التجاري امتد غربا ليشمل إيطاليا وبروفانس وبالضبط مرسيليا ليخلُص إلى أن عودة المسيحيين للمتوسط وسيطرتهم عليه أدّت إلى عودة انتعاش التجارة <<وهكذا فإن كل البحر المتوسط كان مفتوحا أو بالأحرى أعيد فتحه للملاحة الغربية>>[71] .

ومن الإشاعات التي بنا عليها دعاة الحملة الصليبية حملتهم على الشرق الإسلامي "تعرض حجاج بيت المقدس النصارى" لاضطهاد المسلمين وضرورة تخليص القبر المقدس من يد الأتراك، وهو ما أشار إليه البابا أوربان الثاني في خطبته الشهيرة بمجمع كليرمونت-سابق الذكر-[72]، ثم إنه تأسست فرقة من الرهبان المسيحيين سميت "بالأسبتارية" تعمل لتقديم العلاج لمرضى حجاج بيت المقدس ليغيّروا من نشاطهم الصحي إلى <<حراسة طريق الحجيج>> فأضحت مهمتهم عسكرية وتغيّر اسمهم إلى "فرسان القديس يوحنا" ببيت المقدس، و"فرسان رودس" وفرسان مالطا" وهذا بعد الحملة الصليبية الأولى، ثم تأسست جماعة أخرى لنفس الغرض سميت "فرسان المعبد" أو "الداوية" ببيت المقدس سنة 1118م[73]، ويكذب هذا الزعم نور الدين حاطوم الذي أشار إلى أن استيلاء

المسلمين على المتوسط لم يمنع الحج إلى الديار المقدسة من طرف النصارى بل تسامح به المسلمون فكثر في القرن العاشر[74] ، ويشير ابن يمين إلى هذه الرحلات التي تتجمع بميناء "مسينة" و"بلرمو" بصقلية دون الإشارة إلى الاضطهاد[75] ، ونفس الشهادة يقدمها ابن جبير في رحلته حينما ركب من مدينة صور مركبا جنويا فيه مسافرين مسلمين ونصارى بلغاريين عددهم ألفيْ (2000) مسافر <<وهم حجّاج بيت المقدس>>[76] .

وهذا "روجار الثاني" ملك صقلية (حكم بين 1130-1154م) استولى على "**طرابلس**" سنة 540هـ/ 1145م وأدخلها في طاعته[77] ، وبعد ثماني سنوات احتل مدينة "**بونة**" وعيّن عليها عاملا من قِبله[78] .

أما **علاقات الودّ** فمعلوم أنها كانت حاضرة منذ القرون الهجرية الأولى بين **شارلمان** (ت.814م) –ملك الفرنجة- و**هارون الرشيد** (ت.193هـ/809م) –الخليفة العباسي- تُوّجت بمنح الخليفة العباسي لشارلمان << حق حماية الأمكنة المقدسة في فلسطين مع المؤسسات المسيحية فيها والسكان والزوار المسيحيين في الأراضي المقدسة>>[79]. كما كان **للفاطميين** بمصر اهتمام كبير بالنشاط البحري في المتوسط، حيث وجدناهم يأذنون للتجار الإيطاليين وغيرهم من التجار الأوربيين بإنشاء الفنادق الخاصة بهم << وكانت لكل جالية أجنبية بالإسكندرية فندق للإقامة والتجارة>>[80] .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن **الجوانب التجارية بالمتوسط** ونبدؤها بمزاعم "هنري بيرين" الذي استنتج أن التوسع الإسلامي في البحر المتوسط أدّى إلى <<

توقف نشاطه بأسرع ما يكون خلال القرن السابع الميلادي ولقد أدى توقف التجارة في القرن الثامن إلى اختفاء التجار>>[81] ، ويحاول تأكيد ذلك بالتطرق إلى جمهورية "**البندقية**" التي لم تتصل تجاريا بالشرق بل نمى نشاطها مع جنوب أوربا خلال القرن التاسع الميلادي[82] ، وهو بذلك ينفي أي نشاط تجاري مع الجانب الإسلامي، وهذا زعمٌ غير صحيح لأن الإشارات الواردة عند ابن جبير في رحلته وفي كتب الجغرافيا المختلفة تؤكد علاقات التواصل السلمي والتجاري عبر البحر المتوسط.

ويروي بيشوب أن خلال الحملة الصليبية الخامسة استغلها بعض تجار مرسيليا حيث حمل اثنين من أصحاب السفن هما "هيو الحديدي" و"وليام الكبير" عددا من الشباب المتحمس للحرب المقدسة ، وعوضا لإيصالهم إلى فلسطين باعوهم كعبيد في بجاية[83] ، ثم يؤكد على فكرة فشل الحملات الصليبية وعادت بالسلب للبابوية والكنيسة، بل ويجعل من نتائجها انتعاش التجارة بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي بشكل عام[84] .

وأشارت الكثير من النصوص إلى وجود خطوط ملاحية ربطت بين بعض المراسي الأندلسية ومرفأ الإسكندرية بمصر، كما وجدت حركة بحرية بين الأندلس ومراسي بلاد المشرق سواء عبر سواحل بلاد المغرب أو عن طريق صقلية[85] ، وكذلك روابط تجارية عدّة بين الأندلس ومدن المغرب الأوسط كتنس ووهران وشرشال وغيرها[86] .

وخلال حكم **المرابطين** واجهت التجارة مع بلاد البحر المتوسط صعابا كثيرة – كما يذكر عز الدين عمر موسى- بسبب حروبهم مع نصارى إسبانيا إضافة إلى العلاقة السيئة مع الفاطميين في مصر، ليؤكد بأن << لم يبق أمام المرابطين سوى

التعامل التجاري مع صقلية والمدن الإيطالية التي بسطت سيطرتها على البحر المتوسط في أواخر القرن 5هـ/ 11م>>[87].

وأما في عهد **الموحدين** فقد تنوعت العلاقة بين السلم والحرب مع القوى البحرية التجارية في المتوسط، فقد اضطر النورمان إلى التحالف مؤقتا مع الموحدين سنة 576هـ/1181م فسمح لهم الموحدون باستثمار فندقين في مدينتي "زويلة" و"المهدية" لكن سرعان ما اضطربت بينهم العلاقات، بعدما تحالف النورمان مع ميورقة سنة 581هـ/1185م، مع العلم أن هذه الأخيرة (ميورقة) كانت على علاقة حسنة مع الموحدين وسمحت لهم باستغلال ميناء بجاية كمركز تجاري، وهذا ما أدى بالموحدين إلى التعامل مع المدن الإيطالية "جنوة" و"بيزة" وسمحوا لهم بالتجارة في كل المراسي بما فيها بجاية، وتجدد هذا الاتفاق في سنة 571هـ/1176م وسنة 587هـ/ 1191م[88] ، وأشارت وثائق الجينيزا بمصر <<وصول المراكب إلى الإسكندرية قادمة من دانية وألمرّيّة الإسبانيتين خلال 1060م و 1071م>>[89] ، وتؤكد كنستابل أن <<التجار من مناطق أخرى من العالم الإسلامي وجنوب أوروبا يجعلون طريقهم في كثير من الأحيان إلى الأندلس ومنه بحرا>>[90] .

وإذا راجعنا ما ذكره الجغرافيون أعلاه يتأكد لدينا النشاط التجاري النشيط داخل حوض المتوسط، فهذه "مالقة" يُحمل تينُها إلى مصر والشام والعراق[91] ، و"دانية" تخرج منها السفن إلى أقصى المشرق، ومثلها "ألمرّية" تقصدها المراكب بحرا من الإسكندرية والشام كله[92]، أما "سبتة" فيُحمل خشبها إلى الآفاق وأوّلها الجارة الأندلس[93] . والسفن التجارية بين "وهران" و"تنس" و"بونة" مع الأندلس

تكاد لا تتوقف[94]، وكان أهل "بجاية" يُجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق[95] ، وتقصد إلى مدينة "الجزائر" السفن من إفريقية والأندلس[96] . وأما مرسى "المهدية" بتونس فتقصده السفن من الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس[97] .

وفي الساحل الشامي نجد القطن الحلبي (حلب) يُحمل في المراكب إلى سبتة فيعمّ بلاد المغرب[98] ، ومن جمهورية "بيزا" بإيطاليا، و"مرسيليا" بفرنسا يتردد الإفرنج على بلاد المسلمين، ومن "كريت" يُجلب الجبن والعسل إلى الإسكندرية، ومن "نربونة" بجنوب فرنسا يُحمل قزدير ونحاس إنكلترا وإيرلندا إلى الإسكندرية[99] .

إنها شبكة من المواصلات تتداخل فيما بينها وتتكامل لتجعل من ضفتيْ البحر المتوسط على تواصل دائم تتبادل دوله وشعوبه كل أنواع التجارة، وتوفر لمن يريد السفر السفن والمراكب التي توصله على مقصده، طبعا مع وجود الخوف الناجم عن استهداف القوارب من حين لآخر من هذا الطرف أو ذاك.

وإذا جئنا إلى تحديد **جنسيات المراكب** التي كانت تجوب عباب البحر المتوسط فإن كتب الرحلات خاصة منها رحلة ابن جبير تقدم لنا صورة واضحة المعالم أصحاب السفن والمراكب الذين يسقلون الطرق البحرية المختلفة فيذكر ابن جبير أنه ركب من مدينة سبتة على مركب "للروم الجنويين" متوجها إلى الإسكندرية[100]، وحطّ هذا المركب بجزيرة سردينية ، وبها وجد "مركبا للروم" كان متوجها إلى جزيرة صقلية بينما كانت انطلاقته من قرطاجنة الأندلسية[101] .

وفي طريق عودته من سواحل الشام نحو الأندلس يذكر لنا ابن جبير أنه وجد بالإسكندرونة(سواحل سوريا) مركبا صغيرا متوجها إلى بجاية، فرفض صعوده

لصغره[102] ، إلا أنه لم يخبرنا إلى أي جنسية ينتمي، ولما وصل مدينة صور (سواحل لبنان) ركب مركبا "رئيسه جنوي" رفقة عدد كبير من المسلمين والنصارى البلغار القادمين لحج بيت المقدس[103] ، ثم يذكر وصولهم اضطرارا بسبب عاصفة إلى إحدى مراسي صقلية وهناك توافدت إلى نفس المرسى خمسة مراكب منها اثنان كانا قد أقلعا من الإسكندرية ولم يذكر جنسية هذه المراكب الخمسة[104] ، كما يذكر أن المركب الذي أقلّهم إلى صقلية تحطم بسبب عاصفة بحرية ألجأته إلى صخور الساحل، وبينما كان ينتظر الفرصة لاستكمال السفر إلى بلاده الأندلس وجد مركبين يرومان الإقلاع إلى المغرب وكان أحدهما قاصدا إلى الأندلس فركب فيه وصاحباهما جنويْن، لكن القانون الساري بصقلية أن الأولوية في الانطلاق تكون للسفن الصقلية، ويعني ذلك احتكاره للمسافرين، وبعد انطلاقه مملوء يمكن للسفن الباقية أن تقلّ من تبقى من المسافرين، وهذا الذي جرى على الأرض، حيث انطلق المركبين الجنويْن بعد المركب الصقلي[105] ، وبعد أكثر من عشرة أيام في انتظار الريح المناسبة ركب ابن جبير رفقة خمسين مسافرا من المسلمين في ثلاثة مراكب للروم (البيزنطيين) نحو الأندلس ، وفي الطريق التقوا بمركبٍ "جنوي" كان قد تركه في الإسكندرية متوجها إلى الأندلس وكان يحمل على ظهره حجاج مغاربة وبعض الغرناطيين، وهذا قبل أن يصل إلى "يابسة" –إحدى جزر البليار الثلاثة- ومنها إلى دانية من سواحل الأندلس[106] .

ويبدو من خلال هذه النصوص أن أهل جنوة كانت لهم اليد الطولى في النقل البحري وهو ما أكده ابن يمين التطيلي فيما ذكرناه سابقا في قوله عنهم أنهم:

<<مسيطرون على البحار يجوبونها بسفنهم الخاصة...ويقومون بأعمال القرصنة على الروم والمسلمين فيعودون إلى جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة>>[107] ، ويبدو أن قوارب المسلمين كانت أيضا نشطة في حركة النقل بالمتوسط إلا أن حركتها اقتصرت خصوصا بالسواحل الإسلامية بين الأندلس والمغرب ومصر، ومن ذلك ما أشرنا إليه ساباق في ذكر المراسي في كل من الأندلس وبلدان المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وليبيا، كما أشار إلى ذلك القلصادي في طريق عودته من رحلته حيث يذكر انتقاله رفقة المسافرين الذين معه من الإسكندرية إلى برقة << في أربعة مراكب للمسلمين>>[108] .

4.خـــاتمـــة:

تميّزت العلاقات بين بلاد المغرب وباقي دول المتوسط بحالتين مختلفتين ومتعاكستين أولاهما "علاقات الحرب" والتي كانت في أحايين متقطعة وفي أزمان متباعدة، بينما الطابع الغالب لهذه العلاقات هو "حالة السلم" التي امتدت خلال معظم قرون العصر الوسيط حيث كانت سفن المسافرين وسفن التجار تجوب عباب البحر المتوسط وتتنقل عبر مختلف السواحل وتحط بأهم المراسي التي توزعت في جنوب شرق الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي من طنجة إلى طرابلس، وبمصر كانت الإسكندرية أكبر وأهم مرسى بشمال إفريقيا، ثم المدن الكبرى بالساحل الشامي وصولا إلى أنطاليا بآسيا الصغرى، وهذا بالشرق الإسلامي أما في الغرب المسيحي فكانت المراسي تبدأ من برشلونة بعد طرد المسلمين منها لتمتد إلى جنوب بلاد الغال (فرنسا) حيث نجد مرسيليا وناربونة، وبعدهما تأتي منطقة الجمهوريات الإيطالية (البندقية، بيزا، وجنوة)، ثم أهم الجزر التي مثّلت القواعد الرئيسية للملاحة البحرية ابتداء بسردينيا، وصقلية، وكريت، وقبرص.

وتبيّن من خلال النصوص التي عدنا إليها بأن المراكب الإسلامية لم تبرح كثيرا مناطقها القريبة خاصة أثناء الحروب الصليبية وبعدها، حيث تذكر كتب الجغرافيا والرحلات انتقال الأشخاص والبضائع بين المدن الإسلامية خاصة، بينما وجدنا سفن جنوة والبندقية وصقلية وبدرجة أقل سفن الروم (البيزنطيون) تجوب معظم السواحل شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وهذا ما يدفعنا إلى الاستنتاج بأن السواحل الإسلامية كانت أكثر أمنا من غيرها .

5.الهوامش ؛)

[1]- أبو عبيد البكري(ت.487ه) : **المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003، ج2، ص150.

[2] - علي بن موسى بن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوام المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982، ص168- 169.

[3]- أرشيبالد لويس: **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى، فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، مكتبة النهضة المصرية، ص17 وما بعدها.

[4]- يُنظر: البلاذري أبو الحسن (ت.279ه): **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 1988، ص67، 111، 223، 228.؛ محمد بن جرير الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ص565، 583، 671، 726، 1249؛ ابن حزم الأندلسي: **جوامع السيرة النبوية**، دار الكتب العلمية، لبنان، ص174 وما بعدها؛ جلال الدين السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، دار الفكر، لبنان، ط1، 2000م، ص123-124، 144 وما بعدها، 209.

[5]- الطبري : مصدر سابق، ص728-729، 739-740.(ذكر ذات الصواري في أحداث سنة 431ه)؛ البلاذري: مصدر سابق، ص153 وما بعدها؛ السيوطي: مصدر سابق، ص145. يُنظر: حسين مؤنس: **تاريخ المسلمين في البحر الأبيض المتوسط**، ص76، 90.[فتح صقلية ، ص101 وما بعدها]؛ سعيد

عبد الفتاح عاشور: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، لبنان، 2015م، ص105وما بعدها.

[6]- البلاذري: نفسه، ص233-234.

[7]- ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، لبنان، ط3، 1983م، ج1، ص102.

[8]- مؤنس: مرجع سابق، ص121-122.

[9]- عاشور: مرجع سابق، ص112؛ أرشيبالد: مرجع سابق، ص90 وما بعدها.

[11]- نور الدين حاطوم: **تاريخ العصر الوسيط في أوروبا**، دار الفكر، سورية، ص ص75- 80. عاشور: مرجع سابق، ص119 ما بعدها

[12]- حاطوم: مرجع سابق، ص75 وما بعدها.

[13]- حاطوم: مرجع سابق، ص150 وما بعدها؛ عادل زيتون: **العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى**، دار دمشق، سوريا، ط1، 1980م، ص96؛ عاشور: مرجع سابق، ص161 وما بعدها.

[14]- حاطوم: نفسه، ص826.

[15]- موريس بيشوب: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص59؛ عادل زيتون: مرجع سابق، ص127 وما بعدها؛ حاطوم: مرجع سابق، ص819-820.

[16]- بيشوب: مرجع سابق، ص58

[17]- عادل زيتون: مرجع سابق، ص111.

[18]- بيشوب: نفسه، ص59.

[19]- زيتون: مرجع سابق، ص124؛ Georges JEHEL : **Les Relations Entre Genes Et Le Maghreb Occidental Au Moyen Age**, **Aspects Politiques Et Economiques**, Dans : L'Occident Musulman et L'Occident Chretien Au Moyen Age , Coordonné par Mohammed Hammam, Rabat, 1995, pp107-115.

[20]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص287.

[21]- ابن سعيد المغربي: مصدر سابق، ص139.

[22]- أبو عبد الله الشريف الإدريسي: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس-مقتبس من كتاب نزهة المشتاق-**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983، ص249.

[23]- الإدريسي: نفسه، ص263.

[24]- نفسه، ص292-293.

[25]- ابن سعيد: مصدر سابق، ص140.

[26]- الإدريسي: مصدر سابق (1983)، ص281.

[27]- نفسه، ص282.

[28]- نفسه، ص289.

[29]- البكري، مصدر سابق، ج2، ص252. يُنظر أيضا: أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف الإدريسي(ت.560هـ/1166م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص.271

[30]- أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت.367هـ/977م): **صورة الأرض**، ص77-78.

[31]- الإدريسي: نفسه، ج1، ص252. يُنظر أيضا: مجهول (كاتب مراكشي من القرن6هـ/12م): **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون العامة، العراق، ص133-134.

[32]- ابن سعيد: نفسه، ص142.

[32]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص233-234. ومعظم هذا التعريف كرره صاحب الاستبصار.(مجهول: نفسه، ص127).

[33] - الإدريسي: **نفسه** (1983)، ص203.

[34]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص.234

[35]- الإدريسي: مصدر سابق، ص290. ولا يبعد عن هذه المعلومات ما أورده صاحب الاستبصار. (مجهول: مصدر سابق، ص126).

[36]- الإدريسي، مصدر سابق، ص.260

[37]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص247. وقد نقل هذا الوصف صاحب الاستبصار.(مجهول: نفسه، ص132).

[38]- الإدريسي، مصدر سابق، ص258. يُنظر أيضا: ابن حوقل: مصدر سابق، ص.76

[39]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص203.

[40]- الإدريسي: **مصدر سابق** (1983)، ص182.

[41]- البكري: نفسه، ج2، ص ص211-214.

[42]- ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ/1984م، ص308.

[43]- ابن سعيد: مصدر سابق، ص143-144.

[44]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص271.

[45]- ابن سعيد: مصدر سابق، 143.

[46]- البكري: مصدر سابق، ج2، ص272. يُنظر أيضا: ابن سعيد: مصدر سابق، ص148، 150-151.

[47]- الإدريسي: مصدر سابق (1983)، ص198.

[48]- الإدريسي: نفسه(1983)، ص217.

[49]- نفسه، ص206.

[50]- ابن سعيد: مصدر سابق، ص150.

[51]- نفسه، ص154.

[52]- نفسه، ص 169.

[53]- نفسه، ص169- 170.

[54]- الإدريسي: مصدر سابق (1983)، ص308.

[55]- ابن سعيد: مصدر سابق، ص181-182.

[56]- ابن جبير: مصدر سابق، ص07.

[57]- نفسه، ص ص7-13.

[58]- ابن جبير: مصدر سابق، ص277.

[59]- نفسه، ص ص285-320.

[60]- ابن بطوطة: **الرحلة**، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م، ص12-17، 27، 357-362.

[61]- ابن يمين التطيلي: **الرحلة**، ترجمة عزرا حداد، المجمع الثقافي، الإمارات، (د.ت)، ص ص180-362.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 25 العدد 02 ديسمبر 2024 ص -ص 39-74
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

[62]- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي(ت.891هـ): **رحلة القلصادي**، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص94 وما بعدها، 158 وما بعدها.

[63]- ابن عذارى: مصدر سابق، ج1، ص104.

[64]- هنري بيرين: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى-الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، تحقيق عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص 33-34.

[65]- ابن يمين: مصدر سابق، ص192.

[66]- وسوف تكون الحملات الصليبية وبالا على بيزنطة وسببا في توسع هوّة الخلاف بل الصراع بين النصارى الأوربيين وعلى رأسهم روما (البابوية) والبيزنطيين. (يُنظر: عادل زيتون: مرجع سابق، ص356 وما بعدها، 386 وما بعدها).

[67]- حاطوم: مرجع سابق، ص830 وما بعدها؛ بيشوب: مرجع سابق، ص105-106.

[68]- بيشوب: مرجع سابق، ص102-103؛ حاطوم : مرجع سابق، ص836.

[69]- بيرين: مرجع سابق، ص36.

[70]- بيرين : نفسه، ص34، 35، 36.

[71]- نفسه، ص34.

[72]- بيشوب: مرجع سابق، ص102-103.

[73]- بيشوب: مرجع سابق، ص111.

[74]- حاطوم: مرجع سابق، ص819.

[75]- ابن يمين: مصدر سابق، ص361-362.

[76]- ابن جبير: مصدر سابق، ص283.

[77]- الإدريسي: مصدر سابق (1983)، ص198.

[78]- نفسه، (1983)، ص203.

[79]- حاطوم: مرجع سابق، ص180. ينفي نور الدين حاطوم هذا الزعم باضطهاد المسلمين للحجاج النصارى.

[80]- زيتون: مرجع سابق، ص119؛ مؤنس: مرجع سابق، ص106 وما بعدها.

[81]- هنري بيرين: **مرجع سابق**، ص13، 45-46. يُنظر: Pierre GHICHARD : **Les Pays de La Méditerrannée Occidentale Entre Le V^e et Le X^e Siécles. Retour Sur La Propblématique Pirénienne**, dans : L'Occident Musulman..., p75 et suite.

[82]- بيرين: مرجع سابق، ص31 وما بعدها

[83]- بيشوب: مرجع سابق، ص116.

[84]- بيشوب: نفسه، ص119.

[85]- عبد السلام الجعماطي: **النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316-483هـ)**، دار الأمان ودار ابن حزم، الرباط-لبنان، ط1، 1431هـ/2010م، ص85-86.

[86]- أوليفيا ريمي كنستبل: **التجارة والتجار في الأندلس**، تعريب فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2002م، ص77.

[87]- عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2، 2003م، ص268- 269.

[88]- عمر موسى: مرجع سابق، ص275-276.

[89]- كنستبل: مرجع سابق، ص58، 80.

[90]- كنستبل: مرجع سابق، ص54، 70؛ Vincent LAGARDERE **: Le Commerce Des Céréales Entre Al-Andalus Et Le Maghribe Aux XI^e Et XIII^e Siécles**, L'Occident..., pp123-150.

[91]- الإدريسي: مصدر سابق(1983)، ص292؛ ابن سعيد: مصدر سابق، ص140.

[92]- الإدريسي: نفسه، ص282، 289.

[93]- ابن سعيد: مصدر سابق، 139.

[94]- ابن حوقل: مصدر سابق، ص77؛ البكري: مصدر سابق، ج2، ص233؛ الإدريسي: نفسه، ص252؛ ابن سعيد: مصدر سابق، ص142.

[95]- الإدريسي: مصدر سابق، ص260. يُنظر: الحاج عبد الله بن الصباح: **رحلة المدجن**-أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تعذيب وتعليق محمد بنشريفة، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2008، ص101-102.

[96]- البكري: مصدر سابق، ج2، 247. يُنظر: رحلة المدجن، ص96.

[97]- البكري: نفسه، ص203؛ الإدريسي: نفسه، ص182.

[98]- ابن سعيد: مصدر سابق، ص154.

[99]- نفسه، ص169، 181.

[100]- ابن جبير: مصدر سابق، ص08.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

[101]- نفسه، ص09.

[102]- نفسه، ص 277.

[103]- ابن جبير: نفسه، ص283.

[104]- نفسه، ص290.

[105]- نفسه، ص310.

[106]- ابن جبير: مصدر سابق، ص316-319.

[107]- ابن يمين: مصدر سابق، ص192.

[108]- القلصادي: مصدر سابق، ص159.

6.قائمة المصادر والمرجع

_ الإدريسي أبو عبد الله الشريف: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس-مقتبس من كتاب نزهة المشتاق-**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983.

_ الإدريسي(ت.560هـ/1166م) : **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

_ البكري(ت.487هـ) أبو عبيد : **المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003.

_ البلاذري أبو الحسن (ت.279هـ): **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 1988.

_ ابن بطوطة: **الرحلة**، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م.

_ بيرين هنري: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى-الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، تحقيق عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

_ بيشوب موريس: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005.

_ ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ/1984م.

_ الجعماطي عبد السلام: **النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316-483هـ)**، دار الأمان ودار ابن حزم، الرباط-لبنان، ط1، 1431هـ/2010.

ـــ حاطوم نور الدين: **تاريخ العصر الوسيط في أوروبا**، دار الفكر، سورية.

_ ابن حزم الأندلسي: **جوامع السيرة النبوية**، دار الكتب العلمية، لبنان.

_ ابن حوقل النصيبي أبو القاسم(ت.367هـ/977م): **صورة الأرض**.

_ زيتون عادل: **العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى**، دار دمشق، سوريا، ط1، 1980م.

_ ابن سعيد المغربي علي بن موسى: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوام المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982.

_ السيوطي جلال الدين: **تاريخ الخلفاء**، دار الفكر، لبنان، ط1، 2000م.

_ ابن الصباح الحاج عبد الله: **رحلة المدجن**-أنساب الأخبار ةتذكرة الأخيار، تعذيب وتعليق محمد بنشريفة، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2008.

_ الطبري محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن-السعودية

_ عاشور سعيد عبد الفتاح: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، لبنان، 2015م.

_ ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، لبنان، ط3، 1983م.

_ عمر موسى عز الدين: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2، 2003م.

_ القلصادي الأندلسي أبو الحسن علي(ت.891هـ): **رحلة القلصادي**، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.

_ كنستبل أوليفيا ريمي: **التجارة والتجار في الأندلس**، تعريب فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، 2002م.

لويس أرشيبالد: **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى، فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، مكتبة النهضة المصرية.

_ مجهول (كاتب مراكشي من القرن6هـ/12م): **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون العامة، العراق.

_ ابن يمين التطيلي: **الرحلة**، ترجمة عزرا حداد، المجمع الثقافي، الإمارات، (د.ت).

_ JEHEL Georges: **Les Relations Entre Genes Et Le Maghreb Occidental Au Moyen Age**, **Aspects Politiques Et Economiques**, Dans : L'Occident Musulman et L'Occident Chretien Au Moyen Age , Coordonné par Mohammed Hammam, Rabat, 1995 .

_ GHICHARD Pierre: **Les Pays de La Méditerrannée Occidentale Entre Le V^e^ et Le X^e^ Siécles. Retour Sur La Propblématique Pirénienne**, dans : L'Occident Musulman...

_ LAGARDERE Vincent**: Le Commerce Des Céréales Entre Al-Andalus Et Le Maghribe Aux XI^e^ Et XIII^e^ Siécles**, L'Occident...,